

أستاذتي قيثارة العراق عاتكة الخزرجي

أ. د/ علي القاسمي. العراق

بين الجوانح لم يشعر به أحد

لأخرجن من الدنيا وحُبكم

العباس بن الأحنف

اللقاء الأول: أكتب هذه المقالة عن أستاذتي المرحومة الشاعرة الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي، قيثارة العراق، لعلّي أستطيع أن أردّ بعض جميلها عليّ، وأنوّه بشيء من كريم فضلها الذي غمرتني به، وأعرب عن امتناني لما تعلّمته على يديها من أدب ومعرفة وشمائل وخلّاق إنسانية سامية. التحقّت بدار المعلمين العالية في بغداد في أيلول 1957، قادمة من بلدة صغيرة في الفرات الأوسط. وكان من حسن حظّي أنّ أستاذتنا لدرس اللغة العربية في السنة الأولى هي الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي التي كانت قد عادت من باريس قبل عامٍ واحدٍ فقط، بعد أن حازت شهادة دكتوراه الدولة في الآداب من السوربون، وعُيّنت أستاذةً في دار المعلمين العالية.

كانت الدكتورة عاتكة الخزرجي تعاملنا — نحن طلابها — بلطفٍ ورقّةٍ واحترام، كما لو كنّا أولادها الأعزاء أو إخوتها الصغار، وتُشعرنا واحداً واحداً بأننا أفرادٌ على درجةٍ كبيرة من الأهميّة والكرامة. كانت تدرّسنا ذلك العام شعر الشاعر العباسي، العباس بن الأحنف (ت نحو 194هـ / 807م)، بوصفه نموذجاً للأدب العربي والحضارة الإسلامية وقيمها ومثلها في أزهى عصورها، عصر هارون الرشيد. وكانت عاتكة قد اكتشفت، وهي ما تزال فتاة صغيرة، شاعريّة العباس بن الأحنف الفذة وأغرمت به وتألّمت لما أصابه من آلام حبّه الخائب لمعشوقته "فوز". ولهذا كان هذا الشاعر هو موضوع رسالتها للدكتوراه في السوربون. طلبتُ منا ذات يوم حفظ قصيدةٍ من قصائد العباس بن الأحنف. وعندما سألتُ في اليوم التالي ما إذا كان أحداً قد حفظها، رفع بعضنا أصابعه، وكنتُ من بينهم. ويبدو أنّي كنتُ أرفع إصبعي بشيءٍ من الإلحاح ولم أنتبه إلى أنّ غيري قد سبقني إلى ذلك. فطلبتُ من أحد الطلّاب تلاوة القصيدة وفي الوقت نفسه التفتت إليّ وخاطبتني بلطف وبابتسامةٍ اعتذارٍ قائلة: "أنت مسك الختام." ولكن عندما جاء دوري، ارتجّ علي ولم أستطع تذكر القصيدة. فقالت ملتزمةً لي العذر: "كثيراً ما يحصل هذا عندما نحفظ النصّ جيّداً."

كانت الدكتورة عاتكة الخزرجي تجمع في شخصيتها الجميلة بين غنج الفتاة البغدادية المترفة والأناقة الباريسية الجذابة، والخلق الإسلامي المحافظ. كانت في ذروة شبابها لم تتعدَ السنة الحادية والثلاثين من عمرها المبارك، تصفَّ شعرها الفاحم السواد على شكل زهرتي دالية تحتضنان وجهها الصبوح ذا الملامح الجميلة المتناسقة الساحرة، الذي تشرق فيه ابتسامتها الصغيرة الحيَّة المرسومة بعناية على شفتيها الحمراوين المكتنزين. وعندما تكبر ابتسامتها، تكشف عن أسنانٍ لؤلؤية ناصعة البياض، وتبدو غمَازتان أخاذتان على الخدين الأسيلين. قوامها لدن رشيق لا يشكي منه طولٌ ولا قصر، مع بروزٍ ملحوظ في صدرها الناهد. تمشي بخطواتٍ رشيقةٍ خفيفةٍ موسقة كما لو كانت تؤدي رقصة الفرح على ألحان شعرها المنعم ويفوح خلفها عطرُها الباريسي النادر الفريد. في تلك الأيام كان يكفيني أن أقرب من غرفة أستاذة اللغة العربية في بناية دار المعلمين العالية لأعرف ما إذا كانت الدكتورة عاتكة قد وصلت أم لا (وفي هذه اللحظات التي أكتب خلالها هذا المقال بالحاسوب في المقهى الشتوية في شارع محمد السادس في مدينة مراكش الرائعة تنتهي إليّ، على بُعد المسافة، أريجُ عطرك الفواح، يا عاتكة، بعد أكثر من خمسين سنة من الفراق). كانت تحدثني بصوتٍ خفيضٍ رخمٍ ذي رنين عذب يشيع المرح في الجو، وأنا أرافقها بعد الدرس من غرفة الصف إلى موقف السيارات حيث سيارتها الصغيرة. ولكن لم أكن قد تعلّمت آنذاك ما يكفي من الشهامَة واللياقة واللباقة لأفتح لها باب السيارة، بل كنتُ أقف مشدوهاً أراقبها بحسرةٍ وهي تفتح باب السيارة وتمشطها وتغادر. باختصار، كانت عاتكة — في نظري — أجملَ امرأة تقود سيارتها أو تمشي بين الرصافة والجسر، بل حتّى أحلى وأملح وأفصح وأكثر جاذبية من جميع طالباتها اللواتي كنَّ يصغرنها بأكثر من عشر سنوات. كنتُ أنظر إليها مأخوذاً منبهرًا كما لو كنتُ أقف مبتهلاً أمام صورة مقدّسة، فائقة الحسن خلابة الجمال، أبدعها الخالق المصور الأعظم.

مولدها المبارك وموهبتها الشعرية: ولدت عاتكة في بغداد سنة 1924 في أسرةٍ ميسورة. إذ يروي الناقد العراقي الموصلي المتميّز سيّار الجميل، أنّه عثر في دفاتر قديمة تعود لجده الأديب علي الجميل ما يفيد أنّ وهبي الخزرجي، والد عاتكة، كان صديقه وكان يشغل منصب متصرّف (محافظ) الموصل إبان العهد العثماني. ويبدو أن والد عاتكة كان رجلاً متديناً تقيّاً، فقد أرّخ ولادة عاتكة ودعا لها بهذه العبارة: "سترها الله تعالى، وجعلها خادمة له، ولحبيبه صلى الله عليه وعلى آله وسلّم" وأن عاتكة تأثرت بما سمعته، عن سيرته وتديّنه، من أمّها الصالحة التي أحسنت تربيتها. ففي جوابها على قصيدة الشاعر المصري الكبير

عزيز أباطة، الذي بعث إليها بتحيةٍ شعرية، فردّت حالاً بقصيدةٍ لها نفس الوزن
وذات القافية:

أنا يا مولاي بنتُ الصيّدِ والغرِّ الأبّاةِ

بنتُ ذاكِ القانتِ الحرِّ الكريمِ الخلواتِ

من يُقيمُ اللَّيْلَ بالذِّكرِ ووحى الصلواتِ

خاشعاً لله في المحراب، برّ الدعواتِ

وأبي ما مات بل عاشَ بِسَمَتِي وسماتي...

فقدتُ عاتكةً والدها بعد ستة أشهر من مولدها. وقد أورها اليتيم المبكرُ أسيّ شفيفاً
وحسرةً دفينّة، حولتهما أحاسيسُها المرفهة ومشاعرها الرقيقة إلى شعرٍ حزين، حتّى
أصبح الألم والحزن والحبُّ بمعناه الواسع (حبّ الأم والأهل، حبّ الوطن، الحبّ
الإلهي) من موضوعات شعرها الرئيسية. وراحت تسمّي نفسها " ابنة الآلام
والشعر والحب"، كما في قصيدتها "هوى الوطن" التي تخاطب فيها حمامةً على
غصنها أو تخاطب نفسها، فهي تلك الورقاء الحزينة:

قفي أنشديني من لحونك ما يُصبي فأنتِ ابنةُ الآلام والشعرِ والحبِ

قفي أسعدي قلباً برته يدُ الأسي ومثلك من يأسو الجراحات في القلب...

أورها اليتيم المبكرُ أسيّ مُقيماً وجرحاً أليماً، تتذكّره كلّما رأت أمّها التي تداري
دمعها ومصيباتها، كيما تبتسم لابنتها الصغيرة وتشجّعها على القراءة والدرس، حتّى
أضحت الأمومة موضوعاً من موضوعات شعر عاتكة. ففي قصيدة (نشيد الأمومة)
تعبر عاتكة عن حبّها الطافح لأمّها وافتتانها بها وامتنانها لها:

أنتِ معنى الحبِّ، بل معنى الحياة أنتِ نورٌ فاض من نورِ الإله

أنتِ، يا أمّاه، من قلبي مُناه أيعيش المرء دون الأمل؟

أنتِ بعد الله رمزٌ يُعبَدُ تفتديه مهجّ بل أكبّدُ

أنتِ يا أمّاه سرٌّ سرمدُ ظلّ فيه الفكر منذ الأزلِ

ويلاحظ أن هذه القصيدة نوع من الرباعيات الذي تلتزم فيها الأشرط الثلاث الأولى بقافية واحدة في حين يلتزم الشطر الرابع بقافية مختلفة هي قافية القصيدة كلها. وكان هذا النوع من الرباعيات يكثر في شعر أدباء المهجر اللبنانيين، كما في قصيدة إيليا أبو ماضي (الطلاس: لست أدري) التي كان لها صدى كبير في العراق آنذاك في مضمونها وشكلها، وأجاب عليها عدد من الشعراء العراقيين بقصائد على غرارها عنوانها (أنا أدري) كما صاغ الشاعر محمد صالح بحر العلوم على غرار شكلها قصيدته المشهورة "أين حقي؟"

لم تقرأ عاتكة في طفولتها أدب المهجريين فحسب، بل قرأت التراث الأدبي العربي، قديمه وحديثه، أيضاً؛ لأنها كانت شغوفة بالقراءة، مولعة بالدراسة. فهي لم تكتف بقراءة ما في مكتبة الأسرة من كتب فحسب، بل استعارت كذلك مختلف الكتب والدوريات من زميلاتها في المدرسة الابتدائية والثانوية لتتذوقها وتلتهمها وتعيدها إليهن بسرعة. لقد كانت عاتكة نحلة تقتات على مختلف الأزاهير فتمتص رحيقها لتحوّله إلى عسل شعري رائع المذاق. ويتلمس بعض النقاد، أثراً للرصافي في شعرها المبكر الذي يتناول الفقراء والمساكين، والنساء البائسات اللواتي طحنهن الترمّل ونخلتهن الوحدة، كما في قصيدة تقول فيها عن أمّها:

وألقت عليّ الأمُّ نظرة أَيْمٍ	قرأتُ بها يتمي وتاريخ حسرتي
وكم كنت آسي إذ أشاهد طفلة	تصيح: أبي، إذ يبتديها بطلفتي
فأسرعُ في ذلِّ ويأسٍ ولهفةٍ	أسائلُ أمِّي، إذ أغالب دمعتي
حنانيك يا أمِّي، أما لي من أبٍ	أما لي من كف تكفكف عبرتي

فقد كان الرصافي مولعاً في هذا النوع من الشعر القصصي الذي يصور آلام البؤساء والمهمشين في المجتمع كما في قصيدته (الأرملة المرضعة) وقصيدته (اليتيم في العيد). وإذا كان هنالك من شبه بين بعض تعبيراتها في هذه القصيدة وبعض تعبيرات الرصافي، فهذا أمر طبيعي نسميه اليوم بالتناص لكثرة قراءات الدكتورة عاتكة.

التحاقها بدار المعلمين العالية: أكملت عاتكة تعليمها العام (الابتدائي والثانوي) في بغداد، وعُرِفَتْ خلاله بتفوّقها على زميلاتها، وسموّ فكرها وعمقه، وجودة إنشائها وروعة إلقائها، فقد قالت الشعر في سنٍّ مبكرة. ثم دخلت دار المعلمين العالية حوالي سنة 1941 وكانت فتاةً خجولةً حيّية تلبس عباءتها حتّى في غرفة الدرس على الرغم من أنّ بعض بنات جيلها كنّ يخلعن العباءة عند دخولهن حرم دار المعلمين العالية. ولم تخلع عاتكة عباءتها إلا عند ذهابها إلى باريس للدراسة. فقد

كانت عاتكة محافظة في سلوكها وتصرفاتها، وظلّت كذلك طوال حياتها، ولكنها كانت متحرّرة ثوريّة في شعرها الذي تناولت فيه موضوعاتٍ وطنيةً واجتماعية وتتّسم بجرأةٍ وشجاعةٍ أدبيّتين عندما تلقى شعرها بصوتها الرخيم وطريققتها المنعّمة.

كانت دار المعلمين العالية موئل الشعراء والأدباء من الطلبة الأوائل الأذكياء الذين يؤمّونها من جميع أنحاء العراق، لأنّها تتوفر على قسمٍ داخليٍّ يؤمّن السكن والطعام للطلبة، ولأنّها تضمن لهم وظيفة مدرّسٍ في المدارس الثانوية حال تخرجهم فيها. وتقوم وزارة المعارف بتوزيعهم على جميع مدارس أُلوية (محافظات) العراق. وفي السنوات الأربع التي أمضتها عاتكة الخزرجي في دار المعلمين العالية، كانت هذه الدار تحتضن روّاد الشعر الحرّ في العراق، مثل زملائها نازك الملائكة (1923 — 2007)، وبدر شاكر السياب (1926 — 1964) ومثل عبد الوهاب البياتي (1926 — 1999)، ولميعة عباس عمارة (1929 —) وشاذل طاقة (1929 — 1974) ومحمد جميل شلش (1930 —) وعبد الرزاق عبد الواحد (1930 —) وغيرهم كثير من خارج دار المعلمين العالية، مثل بلند الحيدري (1926 — 1996) وكاظم السماوي (1919 — 2010) وكاظم جواد (1929 — 1985). وكلهم ينشرون أشعارهم في دوريات العراق والمجلات الأدبية اللبنانية مثل (الآداب) وكانت عاتكة في طليعتهم. وكان هؤلاء الشعراء هم الذين ابتكروا الشعر الحرّ وحملوا مشعله. ومع ذلك، فإنّ عاتكة الخزرجي ظلّت محافظةً وفيةً لتقاليد الشعر العربي العمودي، ولكنها حدّثته بموضوعاتها الجديدة، وبأسلوبها المتميّز وأحاسيسها المرهفة، وعاطفتها المتأنّجة. كانت ترى أنّ شكل الشعر العربي بقافيته وأوزانه قادرٌ على التعبير عن مختلف الموضوعات في متباين الأزمان، ولا ترى في الشعر الحرّ إلا هروباً من القافية والبحور الخليلية التي يصعب ضبطها على غير الشعراء المطبوعين، وتقول في ذلك: "إنّ صعوبة الوزن والقافية لا يشكوها شاعرٌ مبدع، وإنما هي عقبة كأداء في وجه المقلّدين... وجمال شعرنا العربي آتٍ من هذا الإيقاع الموسيقيّ المنعّم وإعجاز شعرنا العربي آتٍ من رصانة قوافيه واتساق أنغامه..." وعلى الرغم من أنّ العراق عرف في تلك الفترة عدداً من الشواعر اللامعات، فإنّ عاتكة الخزرجي كانت بينهم مثل نجمة الضحى، أكثرهن لمعاناً، وأروعهن إبداعاً. يقول الدكتور صفاء خلوصي في مفتتح مقالة كتبها بالإنكليزية، إبان دراسته الأدب المقارن في جامعة أكسفورد، ونشرتها مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة 1950، وكانت عاتكة ما تزال طالبة في دار المعلمين العالية: "مهما قيل عن رباب، وأم نزار

ونازك، [وصدوف] والشواعر الأخريات، فإنَّ إمارة الشعر تعود بلا شك إلى ملكة الشعر الحديث غير المتوجة عاتكة وهبي الخزرجي. " في حقيقة الأمر، كان مستواها الشعري يضعها آنذاك في مصاف كبار شعراء اللغة العربية. يقول الناقد المصري الدكتور عز الدين إسماعيل، وهو نفسه شاعر مُجيد، في دراسة له عن ديوانها الأوَّل " أنفاس السَّحر " (1963)، في مقالة نُشرت في مجلَّة "الرسالة": "تجد فيه [في الديوان] شاعرةً قد تكاملت لها كلُّ الأدوات الفنية، وأحرزت كلَّ المهارات الحرفية، حتَّى ليصعب في كثير من الأحيان أن نفرِّق بين شعرها وشعر الفحول من شعراء عصرنا."

قلنا إنَّ عاتكة هي (ابنة الآلام والشعر والحب) كما وصفت نفسها. وإذا كانت الآلام تأخذ نصيباً كبيراً من شعرها الاجتماعي الذي وصفت فيه معاناة المهمَّشين والبنائسين والمساكين، فإنَّ الحبَّ يتجلَّى في حبِّ الأمِّ والناس والوطن. ويتَّسع مفهوم الوطن لدى عاتكة، من بغداد إلى العراق إلى الوطن العربي الكبير. فقصائدها في محبَّة بغداد كثيرة مشهورة، مثل قصيدة "بغداد" التي تقول فيها:

قسماً بالآله عزَّ وجلَّ إنَّ قلبي عن حبِّها ما تسلى

هي منِّي روعي وما أنصف التعبير، لا بل أعزَّ منها وأعلى

هي عندي دنيا من الحُسن طابت وزكت نبتةً وفرعاً وأصلاً

وتجلَّى الحبُّ في شعرها كذلك عندما ألَّفت مسرحيتها الشعرية (مجنون ليل) وكانت ما تزال طالبةً في دار المعلمين العالية. ظنَّ بعضهم أنَّها تأثَّرت فيها بمسرحية أمير الشعراء أحمد شوقي (مجنون ليلي) التي اشتهرت بعد أن غنَّى المطرب الكبير محمد عبد الوهاب عدداً من قصائدها مثل (جبل التوباد) و(تلفتت ظبية الوادي) وغنَّى المشهد الثالث من الفصل الأوَّل منها الذي سماه " أوبريت مجنون ليلي" وضمَّنه في فيلم " يوم سعيد" المنتج سنة 1939 . ولكن الناقد المصري بدوي طبَّانة الذي كان أحد أساتذة عاتكة في دار المعلمين العالية يقول إنَّ مسرحيتها تختلف عن مسرحية شوقي في الفكرة والتصوير، "على الرغم من أنَّهما قد تلتقيان في بعض المواضع". وأحسب أنَّها استقت مسرحيتها الجميلة من أخبار المجنون في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي كان في مكتبة والدها وقرأته وهي طالبة صغيرة، وكذلك من ديوان المجنون نفسه الذي حفظت كثيراً منه، حتَّى إنَّها ضاهت بعض قصائده كقصيدته الياثية المشهورة، في مسرحيتها

عندما تقول: "المنظر: ليلي، قيس مقبل من بعيد وعليه حلتان من حلل الملوك، وهو يتغنى بشعره مقترباً من خيام ليلي ..."

وما كان إلا نظرةً وجوابها
فعلقتها إذ علقتها حباليا
وقد زانها دلّ تحليّه رقةً
وليس سوى ذاك الدلال سببانيا
وأسكرني منها عبيرٌ لأجله
سلوتُ الأقاحي بل سلوتُ الفواغيا...

وقد مُنّلت هذه المسرحية في بغداد ولقيت نجاحاً كبيراً، ما شجّع عاتكة على كتابة مسرحية شعرية أخرى بعنوان "عليّة بنت المهدي". وعليّة هي أخت الخليفة هارون الرشيد وكانت شاعرةً أديبةً لها معرفة بالموسيقى والغناء، ولها صوتٌ رخم، وعرفت بتديّنها وتقواها. ولعلّ هذا ما جذب عاتكة إليها بحيث أرادت أن تتماهى معها في مسرحيّة شعريّة. وهنالك سبب أهمّ لاهتمام عاتكة بعليّة بنت المهدي. فقد توصّلت عاتكة في بحثها المعمّق في شعر العباس بن الأحنف وحياته إلى أن صاحبة الشاعر العباس بن الأحنف التي يسمّيها "فوز" ما هي إلا عليّة بنت المهدي، وأنه كان يخفي حبّه لها ولا يصرح باسمها لمكانتها الاجتماعية المرموقة ولئلا يُسيء إلى سمعتها وما عُرفت به من تديّن وتقوى. وقد توصّلت عاتكة إلى هذا الاستنتاج عن طريق دراسة مقارنة لأشعار العباس الغزلية، وأحداث حياته وحياة عليّة بنت المهدي. ولكنّ عاتكة لم تتمّ هذه المسرحيّة، ونشرت مقاطع منها في ديوانها الأوّل "أنفاس السحر".

وحبّ عاتكة حبّ صوفيّ ينمو ويكبر حتّى يسع الكون كلّهُ، فهو يتدرّج من حبّ الأمّ والأهل، إلى حبّ بغداد، وحبّ العراق، وحبّ العرب، وحبّ الأمة العربية الإسلامية بأسرها، وحبّ الإنسان. وتقول عن حبّها للعراق:

وطني العراق أحبُّهُ
أو تبلىغ الروح التراقي
أهوى النخيل على الضفاف
بحضن دجلة والسواقي

ويمتدّ حبّها من العراق ليشمل العروبة بأسرها وجميع الأمّة العربية الإسلامية:

هواي بها، إني نذرتُ جوانحي
إلى كلّ شبرٍ في العروبة ممتدّ
إليكم إلى الصحراء للرمْلِ للربى
لموج الخليج الثرّ، للروح من نجد...

إلى كلِّ عرقٍ في العروبة نابضٍ وكلِّ فؤادٍ يذكر الله بالحمـد

وفي السنوات الأربع (1941 — 1945) التي أمضتها عاتكة في دار المعلمين العالية، كانت القضية الفلسطينية ملتهبة في وجدان العرب، فكتبت عاتكة — في تلك الفترة وبعدها — عدداً من القصائد لفلسطين صبّت فيها جام غضبها على بريطانيا التي وعدت الصهاينة بدولة، وساعدتهم على إقامتها على أرضٍ مختصةٍ من أهلها الفلسطينيين. ولا بدّ من تأجيج ثورة عاتية تسحق الطغاة المتواطئين مع المستعمر جميعاً. تقول في قصيدتها الطويلة " فلسطين هيا ثورة عربية " :

إليك عن الشكوى فلسطين إننا نفوسٌ ستحيا أو تكون حطاما...

لقد جمعتنا يا فلسطين نكبةً كما تجمعُ الأحرانُ شملَ يتامى
فلسطين هيا ثورة عربية تصيرُ أبراج الطغاة ركاما...

وكانت عاتكة ترى أن ردَّ الأمة العربية على التحدي البريطاني الصهيوني ينبغي أن يتمثّل في وحدةٍ عربيةٍ تمنحنا القوة والهيبة، فتقول:

فلسطين حَتّام السكوت عليهم وقد حسبونا لا نطيق كلاما

ومبدأ الوحدة الكبرى يقربنا قرباً تخالُ به الإيوان أهراما

بيدَ أن عاتكة كانت تدرك آنذاك أنَّ الوحدة العربية لا تتحقّق في مجتمعاتٍ ترزح تحت وطأة الجهل والمرض، وتتشغل قياداتها بسرقة أموال الشعب واختلاس خزينة الدولة. ولهذا كثر شعرها الاجتماعي الذي يندّد بهذه الأخلاق:

وأنى لمثلي أن تسالم دهرها وليس له إلا السفاهة مقصدُ؟

وأنى لمثلي أن تسرَّ بأمةٍ بها الفردُ عبد المال، والمالُ سيدُ؟

ويختار من هام الفقير دعامَةً فيبني عليها قصره ويشيّدُ

أناسٌ تلاهوا بالضلال عن الهدى فليس بهم إلا كفورٌ ومفسدُ

ولهذا فهي تستنهض الهمم، وتدعو أمتها إلى ثورةٍ خلقيةٍ من أجل الرجوع إلى الدّين والخلق القويم:

بلادكم يا قوم أمست عليلة ترجي دنو البرء، والبرءُ يبعُدُ

تمنيتُ لو عاد فينا محمدٌ إذن لآتي بعد الضلالة يرشدُ...

فعودوا إلى إيمانكم بعد رجعةٍ فعودكمُ للحق يا قوم أحمدُ

وهكذا كانت عاطفتها القومية مقرونةً بإيمانها الإسلامي العميق. وهذا واضح من إهدائها ديوانها الأول (أنفاس السحر): إلى كلِّ ناطق بالضاد، ومؤمن بلغة القرآن ومبارك لوحدة العرب، أهدي تسبيحةً لي في محراب الأدب.

وجعلها إيمانها بالوحدة العربية تكنُ محبةً خاصةً لمصر بوصفها قلب البلدان العربية وأكبرها وأغناها فكراً وفناً، فتقول من قصيدة طويلة بعنوان "مصر ساحرة التاريخ":

حبيبة الروح، يا روحي ويا ذاتي الشوق يعصف بي لولا غلالاتي

يا مصر، يا قبلة للفنِّ باركها روح القدير بأي عبْرَ آيات

ابتعثها إلى فرنسا لنيل الدكتوراه في الآداب: تخرّجت عاتكة في دار المعلمين العالية سنة 1945، كما ذكرنا، وعُيّنت مدرّسة للغة العربية وآدابها في مدرسة ثانوية للبنات في بغداد (كانت المدارس الثانوية في العراق آنذاك منقسمة إلى قسمين: للإناث وللذكور). وبعد أن أمضت خمس سنوات في التعليم حصلت على منحة دراسية من مديرية البعثات في وزارة المعارف، للحصول على دكتوراه الدولة من السوربون في باريس.

في العراق الملكي، كان هنالك تقليد سنّه الملك فيصل الأوّل، يقضي بإرسال البعثات الطلابية في الآداب إلى فرنسا، إلى السوربون في باريس بالذات، في حين يُبعث طلاب العلوم إلى بريطانيا أولاً وأمريكا وألمانيا ثانياً. وأحسب أنّ الملك فيصل الأوّل اختار ذلك لا لشهرة السوربون في الآداب فحسب، بل كذلك لئلا يربط السياسة العراقية كلّها ببريطانيا، على الرغم من أنّه حليفها وهي التي أتت به إلى عرش العراق.

ولهذا نجد أنّ معظم كبار أساتذة الآداب في العراق آنذاك هم من خريجي السوربون ابتداءً بشاعر ثورة العشرين ومؤرّخها محمد مهدي البصير (1895 — 1974) الذي حاز الدكتوراه منها سنة 1937/1938، وعلمة العراق الدكتور مصطفى جواد (1904 — 1969) الذي نال شهادته منها سنة 1939. أما زملاء الدكتورة عاتكة الخزرجي، من العراقيين في السوربون فمنهم الكاتب

المتخصّص في الأدب الأندلسي الدكتور صلاح خالص (1925 — 1987
دكتوراه سنة 1952)، والناقد الدكتور علي جواد الطاهر (1911 — 1996
دكتوراه سنة 1954)، واللغوي الكبير الدكتور إبراهيم السامرائي (1923 —
2001، دكتوراه سنة 1956). أمّا أستاذتي الدكتورة عاتكة الخزرجي، فقد نالت
الدكتوراه سنة 1955.

عندما حصلت عاتكة على البعثة (المنحة) إلى جامعة السوربون، أخذت تتهيّأ
للرحيل وتتهيّب منه، لأنها ستفارق أحبّاءها: أمّها، بغداد، العراق. وهكذا كتبت
قصيدة "قبل الرحيل" تخاطب فيها بغداد:

هاتِ العهود على الوفاء وهاكِ وإليكِ ذي يُمنى في يُمنالكِ

قسماً بحبكِ والذي برأ الهوى وأذابَ روعي في سعيّ لظاكِ

لأظُلُّ أُرعى العهدَ شأنَ متيمٍّ ألى على الأيام أن يهـوأكِ

وعندما وصلت إلى باريس، شعرت بوطأة الفراق على الرغم من جمال المدينة
وأنوارها وكونها بنت الحضارة وعاصمة الفنّ في الدنيا بلا منازع؛ وأخذت تحنّ
إلى بغداد والتاعت روحها بالشوق المضطرم. وظهرت في شعرها موضوعة
الحنين:

أواه لو تدرين كم ضاقت بها سبل الحياه

وبدت لها بنت الحضارة وهي قفر في فلاه

وتشوّقت تبغي الفرات فلم تجدْ إلا صدها

تقضي التقاليد الجامعية في السوربون والجامعات العريقة في أوربا مثل أكسفورد
وكيمبرج، أن طالب الدكتوراه لا يتمّ تسجيله إلا عندما يوافق أحد أساتذة الجامعة
المختصّين بموضوع الطالب على الإشراف على دراسته وأطروحته. وكان أكبر
المستشرقين الفرنسيين آنذاك لويس ماسينيون (1883 — 1962)، وهو
متخصّص في تصوّف الإسلامي. ولكن عاتكة الخزرجي اختارت أن يشرف على
دراستها وأطروحتها المستشرق ريجي بلاشير (1900 — 1973) المشهور آنذاك
بترجمته الفرنسية الأدبية لمعاني القرآن الكريم، وكتابه عن المتنبي. ويعود هذا
الاختيار لسببين:

الأول، إنّ لويس ماسنيون كان أستاذاً في (الكوليج دي فرانس) التي كان التدريس فيها يعتمد على البحث، والتي لا تبعد بنايتها سوى خطوات عن بناية السوربون في شارع المدارس Rue des écoles في المقاطعة الخامسة في باريس. مع العلم أنّ أساتذة السوربون قد يحاضرون في الكوليج دي فرانس التي قد يحاضر أساتذتها في السوربون.

الثاني، إنّ لويس ماسنيون أكثر تخصصاً في الدراسات الإسلامية منه في الأدب العربي، خاصّةً التصوّف الإسلامي، وهو مشهور بدراساته عن الحلاج وتحقيقه لديوانه (الطواسين) في حين أنّ ريجي بلاشير معروف بميوله الأدبية على الرغم من ترجمته لمعاني القرآن الكريم بالفرنسية، وكتابه عن النبي محمد (ص) في دراسات المستشرقين.

أضف إلى ذلك أنّ عاتكة كانت تريد أن تكتب أطروحة الدكتوراه عن الشاعر العباسي، العباس بن الأحنف، والذي كتب مقالة العباس بن الأحنف في دائرة المعارف الإسلامية هو ريجي بلاشير، وليس ماسنيون. ولكلّ هذه الأسباب توجّهت عاتكة إلى المستشرق ريجي بلاشير راجيةً منه أن يُشرف على دراساتها وأطروحتها في السوربون عن العباس بن الأحنف. وقد اختارت عاتكة شعر العباس بن الأحنف ليكون موضوعاً لأطروحتها لأسباب ذاتية وموضوعية متعدّدة أهمّها:

أولاً، أنه بغداديّ عراقيّ، مثل عاتكة؛ ومحبّ لبغداد شغوف بالعراق، مثل عاتكة.

ثانياً، كان شبيهاً بعاتكة، أو أنّ عاتكة تشبهه في العفة والطهارة والترف ونبل الروح المفعمة بالحبّ والخير والجمال. فهو عفيف الروح كريم النفس، واقتصر شعره على الغزل والوصف. يقول عنه الجاحظ: " لا يهجو ولا يمدح، ولا يتكسب ولا يتصرّف وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً فأحسن فيه وأكثر. " ويرى الباحث أنّه أغزل الشعراء. وكان في غزله سامياً طاهراً حتّى تحسبه أحد الشعراء العذريّين. وأشاد به المبرّد في كتاب (الروضة) وفضّلّه على نظرائه حين قال: "العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخلعاء، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً، كان ظاهر النعمة ملوكي المذهب، شديد الترف".

ثالثاً، إنّّه مظلوم تماماً إذا ما قورن بغيره من الشعراء الذين هم أقلّ منه منزلةً وشاعريةً، فمعظم شعره قد ضاع، ولم يبقَ منه إلا المختارات التي انتقاها ورواها

أبو بكر الصولي (ت 335 هـ / 964م)، وهو من أحفاد أخوال الشاعر، بعد حوالي قرنين من وفاة الشاعر.

رابعاً، لا يوجد له ديوانٌ محققٌ تحقيقاً علمياً، فديوانه مطبوع مرتين: مرّة في مطبعة الجوائب سنة 1880، وهي مليئة بأخطاء التحريف والتصحيف والسهو والجهل التي اقترفها النساخ؛ ومرّة في بغداد سنة 1947 بتحقيق عبد المجيد الملا الذي احتفظ بأخطاء طبعة الجوائب ولم يُجدِ الشرح.

ومن شعر العباس بن الأحنف الذي يدلّ على أخلاقه النبيلة والذي أوصتنا أستاذتنا عاتكة بحفظه لسلاسة لغته وسمو معانيه:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

واستهضوني فلما قمتُ منتصباً بثقلٍ ما حملوا من ودّهم قعدوا

جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم قد كنتُ أحسبهم يوفون إن وعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يشعر به أحدُ

ومن شعر العباس بن الأحنف الذي يجري مجرى المثل والذي ضمّنتُ بعضه في كتابي (معجم الاستشهادات) قوله:

أرى الطريق قريباً حين أسلكه إلى الحبيب، بعيداً حين أنصرفُ

وقوله:

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خيرَ فيمن لا يُحبُّ ويعشقُ

وقوله:

بكيتُ إلى سرب القطا حين مرَّ بي فقلتُ، ومثلي بالبكاء جديرُ:

أسربَ القطا، هل من مُعيرٍ جناحه لعلّي إلى من قد هويتُ أطيرو

ولهذا كلّ كانت أطروحة عاتكة تتألّف من عمليْن هامّين: تحقيق ديوان الشاعر تحقيقاً علمياً، ودراسة معمّقة في عصره وحياته وشعره والكشف عن الشخصية الحقيقية لحبيّته فوز.

وعلى الرغم من أنَّ المستشرق بلاشير كان على علم بموهبة عاتكة الشعرية ومطلَّع على إبداعها قبل قدومها إلى باريس، فإنَّه كان متردِّداً في الإشراف على رسالتها. لنترك بلاشير نفسه يتحدَّث عن أسباب تردُّده. يقول بلاشير في تصديره لأطروحة عاتكة وهو يخاطبها:

" يا آنستي العزيزة:

لقد عرفك عالم المستشرقين الصغير قبل مجيئك إلى باريس بشاعريتك اللامعة المبكِّرة، ولا أخفي عنك أن هذه الموهبة نفسها هي التي أخافتني وأثارت في نفسي بعض الظنون والريب، فتساءلت: أَيْكون لطباعك وإحساسك وحبك لمُختار الكلم أن تخضع لمقتضيات التحقيق العلمي وأن تتثني للضبط المطلوب من العالم اللغوي فلا تنورُ على طول الأناة التي يحتمُّها كلُّ جهد علمي؟ أسئلة كانت تختلج في نفسي دون أن أفاتحك بها. وقد أعلمني الاختبارُ أن سكوتي كان من ذهب."

وبلاشير على حقٍّ، فما ذكره حقيقةً معروفة؛ فكثيرٌ من الشعراء لا يطبقون البحث العلمي الدقيق، ومن يتعوَّد على هذا البحث منهم قد يفقد شاعريَّته، لأن الشعر هو قمة الخيال ويسعى إلى خلق عالمٍ مثاليٍّ، أمَّا البحث العلمي فهو في عمق الواقع ويسعى إلى الوصول إلى حقيقة علمية موضوعية. وأنا شخصياً أعرف عدداً من الشعراء الذين انخرطوا في إعداد أطروحة الدكتوراه، فتضاءلت شاعريَّتهم أو اختفت تماماً. ومن هؤلاء الشعراء الدكتور صالح جواد الطعمة الذي كان قد تخرج في دار المعلمين العالية سنة 1952 بعد أن نشر ديوانين من الشعر الغنائي الرائع هما (ظلال الغيوم) (1950) و (الربيع المحتضر) (1952) ثم ابتعث إلى جامعة هارفرد مباشرة بعد تخرجه فأمضى خمس سنوات ونال الدكتوراه سنة 1957، ولم يصدر له أي ديوان شعر بعد ذلك.

ولكي أعطي فكرةً عن متطلبات البحث العلمي في حالة الدكتوراة عاتكة، أقول: لا توجد آنذاك إلا ثلاث مخطوطات من ديوان العباس ابن الأحنف: الأولى مخطوطة مكتبة " كوبريلي زادة" في إسطنبول التي اعتمدت عليها عاتكة في تحقيق الديوان ومخطوطة ثانية في المكتبة التركية ذاتها، ومخطوطة ثالثة محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وهي لا تختلف عن المخطوطة الثانية. وكان على عاتكة أن تدرس كلَّ مخطوطة على حدة، وتصفها، وتقارن بينها وبين المخطوطتين الأخريين وتصحِّح أخطاءها، وتذكر جميع التعليقات التي أوردها النساخ على كلِّ واحدة منها بما في ذلك أبياتٌ شعريةٌ ركيكةٌ تهجو العباس بن الأحنف، فالموضوعية تتطلب

ذكر ما لك وما عليك. ومن أمثلة التصويبات التي قامت بها عاتكة وتتم عن درايتها اللغوية وجهدها الكبير في التدقيق، الخطأ الذي ورد في البيت الثاني من هذه المقطوعة للعباس:

إني وإن أظهرتُ هجرانها وطل شوقي وصباباتي

أصبحتُ في المصرِ لي جارة خزراء لا تؤتي ولا تأتي

لحافظُ ما كان من عهدِها أُصدقها في كلِّ حالاتي

فهاتان الكلمتان اللتان تحتها خط، كُتبتا في المخطوطة المعتمدة: (فأصبحتُ) و(جارة عورا) وفي المخطوطتين الأخرين (جارة حورا). صححتُهما عاتكة في ضوء المعنى العام والوزن وما ورد في معجم (أساس البلاغة): "عدو أخزر العين ينظر شزراً، وأمرأة خزراء". وكلُّ مُحَقِّقٍ يعلم أن تصحيح كلمة مثل هذه قد يتطلب سهر ليالٍ لا حصر لها من البحث والتتقيب والتأمل. ومع أن عاتكة قد أوغلت في مجاهل البحث العلمي، فإنها لم تفقد شاعريتها الفذة، بل ألهمتها إقامتها في باريس موضوعات جديدة إضافة إلى موضوعاتها الأثرية القديمة. ولعلها بذلك تكون الاستثناء الذي يؤكِّد القاعدة. ومن هذه الموضوعات الحنين الذي أشرنا إليه، وكذلك موضوعة التصوف الإسلامي التي نحسب أنها كانت نتيجة تربيته، ومحاضرات ماسينيون عن التصوف الإسلامي في الكوليج دي فرانس التي كان يستمع إليها كثيرٌ من طلبة السوربون كذلك، خاصة من الطلبة العرب.

ومن شعرها الصوفي:

أحبك ربّاه فوق الهوى أيا من به كنتُ والحبُّ كان

جمالكَ يا ربَّ عم الوجود فليس لقبِح به من مكان

وكذلك قصيدتها " إلى يثرب " التي تقول فيها مخاطبةً ورقاءها:

هبيني جناحاً كي أطير ليثربِ عساني أدوي ما بقلبي المعذبِ

حمامة هذا الدوح رفقا بخافق يحنُّ لتربٍ عاطر الروح طيبِ

يلجّ به شوق ويحدو به الهوى وتغري به النكباء في كلِّ مذهبِ

عائكة الخزرجی

عاتكة أستاذة في كلية التربية: بعد أن أمضت عاتكة سنتين في التدريس بدار المعلمين العالية 1956 — 1958، وقع الانقلاب العسكري على الملكية في العراق المسمى بثورة 14 تموز 1958، وأنشئت جامعة بغداد من تجميع الكليات الموجودة وضمّت إلى الجامعة دار المعلمين العالية باسم كلية التربية. وبعد سنة واحدة من ذلك التاريخ، حصلت رائدة الشعر الحرّ نازك الملائكة (1923—2007) على شهادة الماجستير من جامعة ويسكونسن — ماديسون في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1959، وعادت إلى بغداد لتعيّن في كلية التربية (دار المعلمين العالية) التي تخرّجت منها سنة 1944. وهكذا تكون كلية التربية قد حظت بأهمّ شاعرتين في الوطن العربي آنذاك.

وبقيت عاتكة أستاذة في كلية التربية. وكانت تغتنم أحياناً عطلتها الصيفية في السفر إلى القاهرة أو باريس للبحث في المكتبات أو لقاء الزملاء من الشعراء والأدباء. ومع ذلك فقد كانت متحفظة في علاقاتها بالناس لئلا تطالها الألسنة. ففي القاهرة، مثلاً، لم تكن تنزل في فندق، بل في دارٍ للراهبات يكري بعض غرفه لمسافرات ينتقيهن.

كانت لها أشعار في الثورة الجزائرية (1952 — 1961) وفي سنة 1971 زارت عاتكة الجزائر مع وفد رسمي في إحدى المناسبات، وكتبت وهي في الطائرة راجعة إلى بغداد، قصيدة طويلة تمتح من رقّة الشاعرة وبهائها:

إنّي — وحقّك — إذْ أشدُّ الرحلَ تمتلئ المحاجر

كيف السبيل إلى الرجوع، وذا فؤادي في الجزائر؟

قسماً بمن عقد القلوب على الصفا عقد الخناصر

فتألّفت رغم الشتات أواصرٌ تدعو أواصر...

وفي أواخر السبعينيات من القرن الماضي أوفدتها الحكومة العراقية للتدريس في دار الحديث الحسنية في العاصمة المغربية، وهي معهد للدراسات الإسلامية العليا وكانت الباحثة الأدبية المصرية المرموقة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، إحدى أستاذات هذه الدار. وعندما قدمت إلى المغرب أواخر سنة 1978 للعمل خبيراً في مكتب تنسيق التعريب بالرباط، وسمعتُ نبأ وجود أستاذتي الدكتورة عاتكة هناك اتصلتُ هاتفياً بصديقي مدير الدار الدكتور فاروق النبهان

ورجوته أن يتحدث مع الدكتورة عاتكة عن رغبتني في إقامة حفل عشاء لأساتذة الدار تكريماً لأستاذتي الدكتورة عاتكة، ويرجوها أن تحدّد الموعد المناسب لها. فقال إنه سيفعل. ولم يجبني، فاتصلتُ به بعد مدّة فقال إنها أخبرته بأنها ستحدّد الموعد المطلوب. ولكنها لم تفعل. وبعد مدّة وجيزة، أخبرني الدكتور فاروق النبهان إن الحنين إلى بغداد استبدّ بالدكتورة عاتكة فعادت إلى العراق. ولم ألتقها. وقد عثرتُ في إحدى مكتبات الرباط على نسخة من ديوان العباس بن الأحنف بتحقيق الدكتورة عاتكة، وهي مصوّرة سنة 1977 بالأوفست في مطبعة المحمدية بالمغرب نقلاً عن الطبعة العراقية، ما ينمّ عن أن الدكتورة قد استخدمت الديوان كأحد المراجع في دروسها في دار الحديث الحسنية ووفّرت نسخاً منه مطبوعة بالأوفست لفائدة طلابها.

شعرها وقيمتها الفنيّة: أصدرت عاتكة ثلاثة دواوين، بالإضافة إلى مسرحيّتها الشعرية مجنون ليلي. وهذه الدواوين هي: أنفاس السّحر (1963) و لألاء القمر (1971) وأفواف الزهر (1975) (لاحظ السجع والموسيقى الداخلية في العناوين الثلاثة). وفي سنة 1986 صدرت أشعارها الكاملة في بغداد في سبع مجلدات. ويرى النقاد أن شعرها واقعيّ أصيلٌ مطبوعٌ بعيد عن التكلّف، ويمتاز بالمحافظة على تقاليد الشعر العربي، ويزدان بموسيقى عذبة فيها براعة الإيقاع وروعة النغم. وتميل الشاعرة إلى الشعر القصصي الراسخ في الشعر العربي. وفي نظري، أن أهمّ نقدٍ وجّه إلى شعر أستاذتي عاتكة، هو الذي كتبه الناقد الصديق المرحوم الدكتور عز الدين إسماعيل أحد رواد التحليل النفسي في الأدب، وهو نفسه شاعرٌ مُجيد. ففي مقالٍ له نشره في مجلة (الرسالة) المصرية حول ديوانها الأول (أنفاس السحر) يعترف بأنّ الشاعرة تتحرّك في قصائد رشيفة في ألفاظها وموسيقاها ذات نسيجٍ متين كلّ المتانة، وأنّ الشاعرة حصلت من الثقافة الشعرية القديمة والثقافة اللغوية قدراً تُغبط عليه، وأنّ روحها امتزجت بالشعر حتى صار جزءاً من كيائها بحيث إنّ قراءة أيّة قصيدة تملأ روحها بالشعر، وتنطلق منها ذبذبات نفسية تجعلها تضاهي تلك القصيدة في ألفاظها وتراكيبها وصورها. وحتىّ إذا انطلقت الشاعرة من تلقاء ذاتها ومن مثيرات روحها الشخصية، فإنها تتأثّر بمخزون ذاكرتها مما تحفظ من التراث الشعري العربي القديم فتتأثّر بتقاليده وتتفعل بمعانيه وموسيقاه وتراكيبه وصوره بما فيها من استعارات وتشبيهات. ولكنّ هذا مع الأسف يُفقدّها خصوصية التجربة وإبداع الجديد. ويقول الناقد "ينبغي أن نفرّق بين الاتصال بثقافتنا القديمة واستيعابها وبين محاكاتها لها وذوبان شخصيتنا فيها. قد كان الشعر العربي حريّاً أن يرتاد آفاقاً جديدةً لولا تسلُّط مبدأ المحاكاة ذاته على نفوس معظم

الشعراء عبر العصور المختلفة." وعلى الرغم من أننا نجد في شعر عاتكة قصائد كثيرة لم تتأثر فيها بموضوعات التراث الشعري العربي القديم، كما في قصيدتها التي تناجي فيها مكتبها ذي الأوراق البيضاء لأنَّ الإلهام لم يوافيها، وعلى الرغم من أنني — بوصفي لغوياً — أعد المحاكاة (بالإضافة إلى القرآن الكريم) من الوسائل التي حافظت على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب ووهبتها قوةً لمقاومة التغيير السريع ومنحتها عمراً مديداً، فإنَّ في ما قاله المرحوم الدكتور عز الدين إسماعيل شيئاً من الحقيقة.

خاتمة: عندما أتذكر أستاذتي عاتكة اليوم، فأنا لا أتذكر عاتكة الشاعرة، بل أتذكر عاتكة الإنسانية، تلك المرأة الجميلة التي عشقتُ جمالها الهادئ، وأنافتها الفريدة وخلقها الفذَّ، وأدبها الجمَّ. أتذكر تلك الأستاذة الرائعة التي بقيتُ أحاول، طوال السنوات التي أمضيْتُها في التعليم، محاكاةً لطفها وعطفها ومحبتها لطلابها وحرصها على إفادتهم.